بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أكرمنا بالقرآن الكريم، وجعل الدعاء سبباً للخلاص من عقابه الأليم، والفوز بالجنة، وتبوؤ مراتب أعلى العليين، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمةً للعالمين، سيدِنا (محمد) وآله وصبحه الطيّبين الطاهرين.

**وبعد:**

فقد خلق الله (سبحانه وتعالى) الإنسان ليكون خليفة له في الأرض وحمّله أمانةً عجزتْ عنها السماوات والأرض وأبتْ حملها وأشفقن منها. هذه الخلافة لا تعني تسلطاً وتجبراً في الأرض، إنّما هي عبودية متخشّعة للخالق - جلَّ وعلا - وتمسّك تام بشرعته ومنهاجه، فكانت صلتنا بالله - تعالى - صلةَ عبودية بعظيم يستحق هذه العبادة، وتترتب على هذه الصلة أمور، منها: التواصل والتخاطب والمناجاة والتضرع، والإنابة. فمن هنا أتى مفهوم الدعاء وصار وسيلة التواصل بين العبد وربّه، فأحب الله - تعالى - أدعية عباده وأمرهم بها وجعلها مناط الاهتمام بهم حين قال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[1]، فصار الدعاء ضرورة في حياة العباد، يستوي فيه المؤمن وغيره! فنرى غير المؤمن عندما تضيق به السُبل يلجأ إلى الله - تعالى - متضرعاً، نادماً، طالباً الفرج والخلاص.

**والدعاء:** ملاذ المؤمن، وهو كما وصفه النبي محمد ﷺ بقوله: (إِنَّ الدُّعاءَ

(1) سورة الفرقان، الآية: 77.

هو العبادةُ)[1]، وبما أن الجن والإنس لم يخلقوا إلا للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] فإن الدعاء مُعطّى إيماني يلتاذ به الإنسان في السراء والضراء لديمومة صلته بربّه وإثبات عبوديته، وعليه فإن الدعاء عظيم، والبحث فيه مدعاة إلى الخير العميم. وقد لجأ إليه سيدنا آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

وبالدعاء كان فوز الفائزين وتأييد المرسلين، ونصر المنتصرين، وهلاك المعتدين، ونيل رضى رب العالمين، وتحصيل الأموال والبنين، والنجاة من خزي يوم الدين، فذا لوط عليه السلام يتجير بربه قائلاً: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[4]، وهذا أيوب عليه السلام ينادي: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[5]، ويناجي يونس عليه السلام في بطن الحوت: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6]، ويهتف نوح عليه السلام في السفينة: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[7]، ويدعو زكريا عليه السلام متضرعاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[8]، ويقول إبراهيم عليه السلام راجياً: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[9]، ويبتهل سليمان عليه السلام إلى الله تعالى قائلاً: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[10]، ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام خاشعاً: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[11] ويلهج لسان شعيب عليه السلام بذكر: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[12]، وخرَّ موسى صَعقاً فلمّا أفاق قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[13].

وهذا دأب الصالحين في كل حين، نداؤهم ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ

(1) صحيح سنن ابن ماجه: 2/ 324.
(2) سورة الذاريات: الآية: 56.
(3) سورة البقرة، الآية: 37.
(4) سورة العنكبوت، الآية: 30
(5) سورة الأنبياء، الآية: 83.
(6) سورة الأنبياء، الآية: 87.
(7) سورة المؤمنون، الآية: 29.
(8) سورة الأنبياء، الآية: 89.
(9) سورة الشعراء، الآية: 83.
(10) سورة النمل، الآية: 19.
(11) سورة المائدة، الآية: 114.
(12) سورة الأعراف، الآية: 89.
(13) سورة الأعراف، الآية: 143.

ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]، بل إن العصاة والمجرمين إذا ضاقت بهم السبل ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]، فذا (فرعون) يقول - عند الغرق - ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[3]، حتى إبليسُ اللعين دعا الله أن يُنْظِرَهُ إلى يوم الدين، فكان من المنظرين، فللّه العظمة والكبرياء، يأمر عباده بالدعاء ليرحمهم، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4] فـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

وبما أنَّ الاهتمام بالأشياء يجب أن يرقى إلى مستوى اهتمام القرآن الكريم بها، والدعاء فيه يشكل جانباً مهماً من جوانب أسلوب العرض، فقد وردت آيات الدعاء حسب إحصائنا (361) ثلاث مئة وإحدى وستين مرة في سُوَرِه، وهي تتنوع من حيث التراكيب والأساليب والصيغ والمفردات والأغراض فكان ذلك مدعاة للبحث في الدعاء، وحافزاً للاهتمام ومثيراً لإفراد دراسة منفصلة، وقد جاء اختيار المستوى الصوتي في دراسة دعاء القرآن الكريم لما للدراسات الصوتية من إمكانية في استبطان الدلالات والكشف عن دقائق المعاني والوقوف من خلالها عند مكامن الإعجاز، فكان (صور من الدعاء في القرآن الكريم - دراسة صوتية) عنواناً والبحث الصوتي منهاجاً بعد مداولات مستفيضة مع أستاذي المشرف على الرسالة.

وبعد تقصّي آيات الذكر الحكيم وجدت أن عدد آيات الدعاء يصل إلى ثلاث مئة وإحدى وستين آية، وهي تتنوع تبعاً للأغراض والمطالب وتتلون في ضوء نفسيات الداعين، وتتشعبُ حسب حاجاتهم، فجاء انتقاء الآيات توخياً للدقة في مساوقة حجم الدراسة، فاخترت دعاء الله - تعالى - لنفسه بصيغتي

(1) سورة المؤمنون، الآية: 118.
(2) سورة يونس، الآية: 22.
(3) سورة يونس، الآية: 90.
(4) سورة غافر، الآية: 60.
(5) سورة غافر، الآية: 64.

(تبارك وسبحان) ودعاءه - تعالى - للأنبياء عليهم السلام بصيغة (سلام)، ودعاء الأنبياء عليهم السلام - لأنفسهم ولغيرهم بصيغة (اغفر)، ثم أدعية أهل الجنة وأهل النار، وجاء دعاء العباد في البحر عند الشدة والضيق في الترتيب الأخير، عسى أن تغطي بحوثٌ مستقبلية الجوانب الأُخر من هذه الدراسة، وتنهل من هذا المعين المتدفق الصافي.

واقتضت طبيعة البحث التمهيد للموضوع بتعريف الدعاء وبيان أهميته ثم بإعطاء فكرة عن الأصوات وأهميتها في وظيفة الكشف عن الدلالات الكامنة في أسلوب الدعاء ودقة التعبير عنه، ويلي التمهيد فصولٌ ثلاثة، يتضمن كل فصل مبحثين، جاء المبحث الأول من الفصل الأول لبيان دعاء الله تعالى لنفسه العليّة بصيغة (تبارك) ودراسة الاشتقاق الكبير في فونيمات هذا الدعاء، ثم الدلالة التعبيرية أو (الرمزية الصوتية) في الفونيمات المشكلة لهذه الصيغة، وعرَّج المبحث الثاني على الدعاء بصيغة (سبحان) متبعاً المنهج الصوتي في الكتابة المقطعية، وبيان وظيفة المقاطع والذبذبات ودلالاتها وعلاقة ذلك بالسياق العام.

ويبحث الفصل الثاني في دعاء الله تعالى للأنبياء بصيغة (سلام) وكان ذلك عنوان المبحث الأول فيه لاستشراف دلالة المصوتات والصوامت وسماتها بعد الوقوف عند دلالة الاشتقاق الكبير في فونيمات هذا الدعاء أيضاً، ويختص المبحث الثاني من هذا الفصل بدعاء الأنبياء عليهم السلام بصيغة (اغفرْ) وبيان دلالات المقاطع والذبذبات والصوائت وبيان ما للسياق من أثر في حال الداعين والمدعو لأجلهم.

ولما لدعاء أهل الجنة وأهل النار من أهمية فقد كان عنوان المبحث الأول من الفصل الأخير هو (دعاء أهل الجنة وأهل النار) ودراسة ذلك صوتياً، وانتقيت في هذا المبحث دعاء أَهل الجنة بصيغة (الحمد لله) ودعاء أهل النار بصيغة (أخرجنا) وعقدت مقارنة صوتية بين نمط الدعائين، وبيّنتُ علاقتهما بالحالة النفسية والبيئة التي فيها كلٌ من الفريقين وأثر ذلك في الأصوات ومقاطع الكلام وذبذبات الفونيمات.

وتناولت في المبحث الأخير أدعية العباد في البحر عندما يحيط بهم الموج من كل مكان ويحدق بهم الهلاك وكيفية تساوق الأصوات ومقاطعها وتأثير أجواء البحر في فونيمات أدعيتهم.

واستند البحث إلى تحليل البنية المقطعية لكل آية مستقرياً عدد المصوتات القصيرة والطويلة، وعدد المقاطع وأنواعها، وعدد الذبذبات، وعدد المجهورات والمهموسات، فأودع البحث نتيجة الاستقراء في جداول تكشف عن دلالة كل ظاهرة صوتية ترد في آيات الدعاء، عدا دلالة الاشتقاق الكبير الذي وظفته في الفصلين الأول والثاني إلى جانب بيان دلالة الجرس والإيقاع في ألفاظ الدعاء والدلالة الذاتية أو القيمة التعبيرية في الفونيم الواحد المتشكل منه ومن غير لفظ الدعاء.

وما توصل إليه البحث من نتائج أثبتناها في موضعها هي خلاصة جهد مبذول في منحًى مهمّ من المناحي اللغوية الساعية إلى الارتياض في حقل معرفي يختص بالإعجاز والبيان، والانتهال من معين القرآن الثر الذي لا ينضب على مرّ الأزمان.

ولم يكن البحث ليخلو من معوّقات على الرغم من الجهود المبذولة لتذليلها، فقد بقيت آثارها جليّة في أثناء البحث، ومن ذلك عدم توفر المختبر الصوتي والأجهزة التي يستعان بها في البحث المخصص للأصوات اللغوية، وندرة المراجع الحديثة التي تتناول هذا المستوى اللغوي دراسة علمية دقيقة، وصعوبة التنقّل بين جامعات العراق - ناهيك عن الجامعات الأُخر - للارتقاء بالبحث إلى مستوى الطموح الذي ينشده الطالب في أي حقل علمي.

وإن كان البحث قد آتى أُكله بعد ما بُذل من أجله جهدٌ مضنٍ فذلك من فضل الله ومن عونه، وإن كانت به مثلبة فأتحمل وحدي وزرها، وتأتي معبّرة عن عملٍ بكرٍ خاض ميداناً لا يخلو من العناء والوكدِ ينتقل الطالب فيه بوجل خشية الوقوع في مهاوي الزلل.

ويقتضي واجب الوفاء التنويه بالعون الذي قدّمه لي أستاذي المشرف

الدكتور (نوزاد حسن) حيث أمد البحث بالجهد والوقت والمصادر النادرة التي كانت كفيلة بتنوير سبيل البحث وتعميق مسيره، خاصةً المصادر التي تختص بعلم الأصوات، فأنا مدين لفيض علمه وجميل حلمه وحسن خلقه، فجزاه الله عني جزاء المحسنين.

**وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه**

**وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين**

# التمهيد

- الإهداء
- الدعاء والأصوات
- نتائج البحث

# التمهيد

**قال تعالى:** ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

**وقال تعالى:** ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[2].

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

(2) سورة طه، الآية: 108.

# الإهداء

إلى...

سيّدي رسول الله محمد ﷺ... أملاً في الشفاعة

- روح والدي الملا (محمد) رحمه الله... الذي غرس حُبَّ القرآن في نفسي
- من تعلقت شغاف قلوبهم بكل حرف من حروف القرآن...

راجياً الدعاء

# الدعاء

إنَّ الدعاء من الموضوعات الروحية المحببة إلى النفوس، لأنّه ملاذ كل مكروب وراحة كل مضطرب، به تهدأ القلوب وتُستر العيوب، ويُنال المحبوب.

فما من أمة إلا وقد لجأت إلى الدعاء، حتى عُدَّ تمسكها بالدعاء سمة رقيها، وانشغالها عنه علامة انحطاطها، يقول (ألكسيس كارل): (متى ضعف الدعاء في قومٍ وأُهمِلت سننه كانت العلامة على انحطاط القوم وعجزهم، فالمجتمع متى انصرف عن التعبد والدعاء أعد في نفسه مناخاً لجر ثيم الانحطاط والاضمحلال، والضعف والعجز، لقد كانت روما عظيمة عريقة في العظمة، بيد أن عزوف أهلها عن العبادة قد جرها إلى الذلة والضعف)[1].

ويختلف الدعاء عند الأمم باختلاف عقائدها، فشتّان بين من يدعو حَجراً أو شجراً أو ناراً أو بقراً وبين من يدعو اللهَ الخالق الصَمد المقتدرَ.

لذلك نرى أنّ الدعاءَ الإسلامي من أصدق أنواع الأدعية، (ونصوصه من أجمل النصوص الأدبية، وهي خير أنموذج يستقي منه طلاب الأدب الفصاحة والبيان، وفي هذا ما فيه من دلالة على عناية الإسلام بالجمال وبالفن إذا هما ساعدا في التكامل الروحي الإنساني، ولم يعن الإسلام بالجمال والفن فحسب إنما أمر بالاهتمام بهما والاعتماد عليهما أمراً، والدعاء الإسلامي يتألف من كلمات كانت لمزاوجة بينها موسيقى، فكان الكلام موسيقى،فالكلمات مشتقةً ومسجعةً موسيقى، والكلمة الواحدة تألفت حروفها من مخارج هي موسيقى والجملة قد جرت الكلمات فيها جرياناً هي الموسيقى، إذاً النص كله قطعةٌ من الموسيقى تتراقص فيه الألفاظ والمعاني بروعة وعمق)[2].

(1) الدعاء،علي شريعتي: 11.

(2) الدعاء،علي شريعتي: 38.

## فما الدعاء؟

أ - **الدعاء في اللغة**: قال ابن فارس (395هـ): (الدّال والعين والحرف المعتل أصل واحد وهو أن تميل الشيءَ إليك بصوت وكلام يكونُ منك، تقول (دعوت أدعو دعاءً)[1].

وتقول: (دعا اللهُ فلاناً، أي أَنزل به ذلك)[2]، و(دعا بالشيء: طلب إحضاره، أصل الفعل (دَعَوَ) قلبت الواو ألفاً لوقوعها متحركة بعد فتحة)[3].

و(معنى الدعاء للهِ على ثلاثة) أوجه: (فضرب منها توحيده والثناء عليه كقولك: ربنا لك الحمد إذا قلته فقد دعوته...

والضرب الثاني: مسألة الله العفوَ والرحمةَ، وما يقرّب منهما كقولك: اللهم اِغفر لنا، والضرب الثالث: مسألة الحظ من الدنيا، كقولك: اللهم ارزقني مالاً وولداً، وإنّما سُمي هذا جميعه دعاءً لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله: يا الله، يا رب، يا رحمٰن، فلذلك سمي دعاءً)[4].

**والدعاء**: الرغبة إلى الله ﷻ، والدعوة: المرة الواحدة من الدعاء.

وتداعى القوم: دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا، والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داع، والداعية صريخ الخيل في الحروب لدعائه من يستصرخه يقال: أجيبوا داعية الخيل، والنادبة تدعو الميت إذا ندبته، والحمامة تدعو إذا ناحت، ودواعي الدهر صروفه، والدعوة: في الطعام، والدِعوة بكسر الدال: ادعاء الولد، وتداعى البناء والحائط للخراب إذا تكسّر وآذن بانهدام، والدعاء في المعاجم هو النداء، يقال: (دعوت فلاناً وبفلان:

(1) معجم مقاييس اللغة: مادة (دعو): 337.
(2) العين: مادة (دعو).
(3) موسوعة الدحداح: 226.
(4) لسان العرب: مادة (دعا).

ناديته وصحت به)[1]، فالنداء: (دعاءٌ يأتي بإحدى أدوات النداء)[2].

فالأصل في النداء أن يكون برفع الصوت، فهو أخص من الدعاء، لأن المطلوب بكل منهما الإقبال نحو المنادي أو الداعي سواء أكان الإقبال بالانتقال الجسدي أم بالانتباه الذهني، يقول الراغب: (وأصل النداء من النّدى، أي الرطوبة، يقال: صوت نديٌّ رفيعٌ، واستعارة النداء للصوت من حيث إن مَن تكثر رطوبة فمه حسُن كلامه، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق...)[3]، فهناك ترابط بين الدعاء والنداء.

ب - أما الدعاء في الاصطلاح الشرعي فمعناه: (الابتهال إلى الله تعالى بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه في تحقيق المطلوب وإدراك المأمول)[4].

ومن آدابه: (أن يكون صوت الداعي بين المخافتة والجهر، وذلك لأنَّ الداعي في موقف ضراعة إلى الله، وتبتل إليه، فينبغي عليه أن يخفض صوته حتى يكون قلبه أقرب إلى الخشوع، وجوارحه أدنى إلى السكون ونفسه أكثر إخلاصاً وصفاءً)[5]، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[6] فالله سميعُ الدعاء (والسمع يحمل معنى الرضى والإجابة)[7].

فهذا التداخل بين الدعاء والنداء والصوت والسمع، كان مثيراً للاهتمام وحافزاً للبحث الصوتي والتقصي عن الرابط بين هذه المعاني.

إلى جانب رقي أسلوب الدعاء، (فقد بلغت العربية في أسلوب الدعاء مبلغاً

(1) أساس البلاغة: مادة (دعو).
(2) من أساليب القرآن: 41.
(3) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (ندا).
(4) جوامع الدعاء من القرآن والسنة: 9
(5) جوامع الدعاء من القرآن والسنة: 40 - 41
(6) سورة الأعراف، الآية: 55
(7) فقه الدعاء: 139.

قَلَّ أن نقف على نظيره في سائر اللغات القديمة)[1]، فمعلومٌ أن (الأدعية والمناجاة تكون نوعاً فنياً واحداً قوامه خطاب الله تعالى والتضرع إليه، والتوسل له، وتمجيده، مما يستدعي بناءً فنياً خاصاً يميز هذا النوع ويبين عن طبيعته)[2].

فالدعاء يُعد (فناً أدبياً أرقى بكثير من بعض الفنون التي اهتم بها القدامى منها الرسالة والخطبة والمقامة والمقالة والمثل والحكمة والتوقيعات. . . وغيرها، ولكنه لم يلقَ الاهتمام الكافي على الرغم من تميز خطابه ومحتواه، وعلى الرغم من اكتمال بنيته واستقلال شخصيته الأدبية، ولم يقتصر إهمال الدعاء على القدامى بل تجاوز إلى المحدثين، فلم يعيروه ما يجب من الدراسة، وربما كان البعد الديني للدعاء، ومن ثم الوظيفة التعبدية التي يؤديها، هو ما جعل هؤلاء وأولئك يصرفون النظر عن هذا الفن، ويستبعدونه من دائرة الفن الأدبي تحرجاً من وضعه جنباً إلى جنب مع النصوص الأدبية ذات الوظيفة الجمالية المباشرة)[3].

وكان هذا سبباً آخر إلى إفراد هذه الدراسة للدعاء من حيث الأصوات وتنوع الأساليب والصيغ وإبراز الجانب الفني والإعجازي في أصوات الأدعية القرآنية وسيأتي الحديث عن الأصوات مكملاً ملامح العلاقة الوشيجة بين الدعاء والأصوات. . .

(1) من أساليب القرآن: 14.
(2) النثر الصوفي دراسة فنية تحليلية: 22.
(3) بنية الدعاء: 192-193

# الأصوات

وردت مادة (صوت) في القرآن الكريم في المواطن الآتية:

قال تعالى:

1 - ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1].

2 - ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[2].

3 - ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[3].

4 - ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾[4].

## فما (الصوت)؟

الصوت في اللغة: مأخوذ من قولك: (صَوَّتَ فلانٌ بفلانٍ) تصويتاً أي: دعاه، وصات يصوت صوتاً فهو صائت بمعنى صائح)[5].

و(الصاد والواو والتاء) أصل صحيح، وهو الصوت وهو جنس لكل ما وقر في أذن السامع)[6].

والصوت مصدر صات الشيء يصوت صوتاً، فهو صائت، وصوّت تصويتاً فهو مصوت، وهو عام غير مختص يقال: سمعت صوت الرجل وصوت

(1) سورة طه، الآية: 108.
(2) سورة الإسراء، الآية: 64.
(3) سورة لقمان، الآية: 19.
(4) سورة الحجرات، الآيتان: 2-3.
(5) العين: مادة (صوت).
(6) معجم مقاييس اللغة: مادة (صوت): 556.

الحمار. . . والصوت مذكر، لأنه مصدر بمنزلة الضرب والقتل والغدر والفقر)[1].

وقال ابن منظور (ت711هـ): (الصوت: الجرس، معروف، مذكر، والجمع أصوات وقد صات يصوت ويصات صوتاً، وأصات وصوّت به: كلّه نادى. ويقال: صات يصوت تصويتاً فهو مصوت، وذلك إذا صوت بإنسان فدعاه. . .)[2].

وفي الاصطلاح يرد الصوت بمعناه الأكوستيكي (Acoustic): للتعبير (عن اضطراب مادي في الهواء يتمثل في قوة أو ضعف سريعين للضغط المتحرك من المصدر في اتجاه الخارج، ثم ضعف تدريجي ينتهي إلى نقطة الزوال النهائي، وتعقد عادة مقارنة هذا بما يحدث من تموجات نتيجة إلقاء حجر على سطح ماء أملس)[3].

ومن المفسرين من أشار إلى تعريف الصوت وقال عنه: بأنه تموّج الهواء. . . فإنه أمرٌ يحدث شيئاً فشيئاً لصدم بعد صدم وسكون بعد سكون وأما سبب التموج فإمساس عنيف، وهو القرع، أو تفريق عنيف، وهو القلع)[4].

وقد ذكر أبو علي ابن سينا (ت428هـ) في تعريف الصوت: (أنه كيفية تحدث من تموج الهواء (المنضغط بين قارع ومقروع)[5].

والذي يعنينا من الصوت هو الجانب اللغوي - أو الصوت اللغوي - أي الحروف والحركات التي يطلقها الإنسان ويتشكل منها الكلام واللغة. (فإن العملية الكلامية تتم في شكلها الأساس عن طريق التحكم في هواء الزفير الصاعد من الرئتين، فيصادف الهواء في اندفاعه إلى الخارج أنواعاً من الضغط

(1) سر صناعة الإعراب: 1/ 23-25.
(2) لسان العرب: مادة (صوت): 4/ 84.
(3) دراسة الصوت اللغوي: 20-21
(4) التفسير الكبير: 1/ 29، وينظر: أسباب حدوث الحروف: 8.
(5) المصدر السابق نفسه.

والكبح والتعويق، والهواء حين يكبح يولد صوتاً (noise)[1]، (وصوت الإنسان ينقسم إلى ما يحدث من حلقه وإلى غيره، والصوت الحادث من الحلق ينقسم إلى ما يكون حدوثه مخصوصاً بأحوال مخصوصة مثل هذه الحروف، وإلى ما لا يكون كذلك مثل الأصوات الحادثة عند الأوجاع والراحات والسعال وغيرها)[2].

وعرف ابن جني (ت392هـ) الصوت بقوله: (اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمّى المقطع أَينما عرض له حرفاً)[3].

ولا تكتمل وظيفة الأصوات اللغوية إلا بوجود (السامع) الذي يلتقط بأذنه الأمواج الصوتية التي تنطلق من فم المتكلم، ويفسرها الدماغ، وينشأ عن ذلك الفهم والإدراك والتواصل، وهو ما يسمى بعلم الأصوات السمعي. (Auditory phonetics). وأهمية دور السامع في العملية الكلامية لا تقل عن أهمية دور المتكلم)[4].

(والأصوات التي يمكن أن تلتقطها الأذن البشرية لها حد أدنى وحد أعلى فمجال التردد للأصوات الممكن سماعها بوضوح قد يبدأ من حوالي (20) عشرين دورة في الثانية إلى (20000) عشرين ألف دورة)[5].

ولا يستغني اللغوي مهما كان منهجه في دراسة اللغة... عن علم الأصوات، (فالأصواتي يعمل لكي يفهم على وجه أفضل اللغة المتكلمة)[6] وربما لا يجمع في الظاهر شيءٌ بين (الصوت والدعاء) سوى أن الثاني هو رفع

(1) دراسة الصوت اللغوي: 112.
(2) التفسير الكبير: 1/ 21.
(3) سر صناعة الإعراب: 1/ 9.
(4) دراسة الصوت اللغوي: 45.
(5) دراسة الصوت اللغوي: 49.
(6) دراسة الصوت اللغوي: 402، 401.

الصوت بالطلب والاستغاثة. . . وهذا بعض ما أردناه، ولكن الموضوع يتجاوز ذلك إلى مدياتٍ أخرى ستظهر خلال البحث، فإنَّ الأصوات عالمٌ فسيح يحمل في أطوائه كثيراً مِن الأسرار والخفايا، فلقد تأثر الإنسان منذ أن وجِدَ على سطح الأرض بالأصوات المحيطة به حتى ظن (أن لبعض التآلفات الصوتية الجميلة القدرة على تهدئة الطبيعة عندما تغضب، وتسكين الوحوش الكاسرة عندما تهيج)[1].

ولو تخيلنا العالم خالياً من الأصوات (فإنه حتماً سيكون عالماً خاوياً مدقعاً لا طعم للحياة فيه، فنحن لا نستطيع الاستغناء عن الصوت كونه وسيلة اتصالنا بالعالم المحيط بنا بكل ما يمثله من أشخاص وأشياء)[2] ولا تقتصر دراسة الصوت على (عالم اللغة) بل تتعدى ذلك لتشمل ميادين (الفيزياء والهندسة والطب وعلم النفس. . .) إذ لعلم الصوت قوانينه وأصوله ومقاييسه التي يستعين بها العلماء للتوصل إلى النتائج التي يبغونها في ميادين أبحاثهم الرامية إلى الكشف على العلاقات الكامنة بين الصوت وظواهره الحياتية، ولسنا هنا بسبيل الخوض في ميادين هذه العلوم، فالذي يهمنا هو (الصوت اللغوي) الذي يقصد به التحليل العلمي للّغة (فإن الأصوات هي اللّبنات التي تشكل اللغة، أو المادة الخام التي تُبنى منها الكلمات والعبارات، فما اللغة إلا سلسلة من الأصوات المتتابعة. . . وعلى هذا فإن أي دراسة تفصيلية للغة ما تقتضي دراسة تحليلية لمادتها الأساسية. . . وتقتضي دراسة تجمعاتها الصوتية)[3]. و(لا يمكن فهم اللغة إلا من خلال فهم أصواتها)[4]. فالصوت اللغوي ذو ظلال ات كثيرة، إذ يعمل على الربط بين المكونات اللغوية جمالياً ودلالياً، فالفصاحة والبلاغة بالمفهوم الجمالي ترتكزان على طبيعة تنظيم الأصوات وتوافقها في

(1) ما نسمع وما لا نسمع: 3.
(2) ما نسمع وما لا نسمع: 4.
(3) دراسة الصوت اللغوي: 401.
(4) language: 42.

شكل هندسي تناسقي يتواءم مع ما ينشده الباحث ويسعى إلى إرضاء المتلقي وحمله على التجاوب مع المضامين الثاوية في أطواء ذلك التناسق، فاللغة - صرفها ونحوها وبلاغتها- (أصوات للتعبير عن مقاصد القوم)[1] فالكلمة المفردة تتشكل بنيتها من الأصوات، يقول الزمخشري (ت538هـ): (اعلم أنَّ الألفاظ التي يتهجى بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي ركبت منها الكلم)[2]، فالكلمة بما لها من خصائص بنائية ومنها (الفصاحة) ومن ثم ألوان الدلالات المنبثقة من التراكيب التي تدخل في بنية تكوينها الكلمات، تؤدي وظائف تعبيرية وفنية، فالكلمة: (مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلفة بطريقة معينة لكي ترمز للأشياء الحسية والأفكار المجردة)[3].

ولا يخرج الدرس اللغوي الحديث عن إطار هذه الحقيقة، فاللغة مرتكزة على الكلمة التي تتضمن مجموعة (فونيمات) هي (أصغر وحدة ذات سمات صوتية مميزة)[4]، ويرى (Trnka) (أن الكلمة عبارة عن وحدة يمكن إدراكها عن طريق الفونيمات وهي قابلة للإبدال ولها وظيفة دلالية)[5]. فالفونيمات (عناصر لغوية يتحقق وجودها خلال استبدال فونيم بآخر في النظام الفونولوجي)[6]، وهذا ما يبين القيمة الوظيفية لهذه الوحدة الصوتية التي تدخل وظيفياً ضمن التميز الدلالي في المجال التركيبي، يرى (Trabestz Koy):

إن الفونيم (ذو نماذج صوتية لها القدرة على التمييز بين الكلمات وأشكالها)[7]، ومنهم مَن ربط بين الفونيم والتحليل النحوي، وهذا الفرع من علم الأصوات يعرف بـ (grammatical phonlogy) والوحدة الصوتية تعرف

(1) الخصائص: 1/ 87.
(2) الكشاف: 1/ 76.
(3) بلاغة الكلمة والجملة: 27/ وبلاغة الخطاب وعلم النص: 194.
(4) language: 74.
(5) the phoneme: 36.
(6) Acours in modern Linguistic: 18.
(7) The phoneme: 127.

بـ (Morphoneme) أو (Morpho syntax)[1] وعلى الرغم مما أسداه القدماء من خدمة جليلة للقرآن الكريم بغية تجلية جوانب خفية من الإعجاز والكشف عن مكامن طرائق الأداء بوسائل شتى فإن معظم جهودهم انصبت على الجوانب البلاغية ومنها (النظم) أي نظم الكلمات في جمل بشكل معجز، ومن البلاغيين من أنكر وظيفة الصوت، يقول عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) : (إن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد)[2]!

وهذا عكس ما ذهب إليه المتخصصون في الصوت. ولعل أول من تخصص في دراسة الصوت اللغوي وأولاه اهتمامه وبيَّن الوظيفة الدلالية التي تؤديها الكلمة باعتمادها الأصوات التي تتشكل في بنيتها هو ابن جني (ت392هـ)، فأثبت القيمة الصوتية التعبيرية للألفاظ، فقال في باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني: (اعلم أن هذا موضع شريف لطيف. وقد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته)[3]، ثم شرع في ضرب أمثلة لذلك، فقال: (وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير، نحو الزعزعة والقلقلة، والقعقعة، والقرقرة. . . فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر أعني باب القلقلة. . . قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر)[4] بل إن (ابن جني) يتعدى ذلك إلى إثبات القيمة الصوتية للحروف فقال : (ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل، فقالوا : كسّر،

(1) new Horizen in Linguistical: P - 91 .
(2) دلائل الإعجاز: 42.
(3) الخصائص: 1/ 505.
(4) الخصائص: 1 / 506، 505.

وقطّع، وفتّح وغلّق، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل. . .)[1]، وقال في مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث (إنه باب عظيم واسع، فمن ذلك قولهم: خَضِمَ وقَضِمَ. فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثّاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب والقضم للصلب اليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك. (ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[2] فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه)[3] وراح ابن جني يضرب الأمثلة الكثيرة لتعضيد رأيه ويذكر الفروق الدلالية لاختلاف الحروف في بنية الكلمة، مثل الفرق بين (القد والقط) وأن الأول للقطع طولاً والثاني للقطع عرضاً وذلك (لأن الطاء أحصر للصوت وأسرع له من الدال)[4]، والفرق بين (السد والصد) وأن السد للباب يسد، والصد، جانب الجبل. . . وهذا أقوى من السد (فجعلوا الصاد لقوتها للأقوى والسين لضعفها للأضعف)[5]، بل إن (ابن جني) يذهب إلى أبعد من ذلك وهو (أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب)[6] وضرب لذلك أمثله منها (قولهم: (بحث) فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث، والبث للتراب)[7].

---

(1) الخصائص: 1/ 507.
(2) سورة الرحمٰن، الآية: 66.
(3) الخصائص: 1/ 509.
(4) الخصائص: 1/ 509.
(5) الخصائص: 1/ 511.
(6) الخصائص: 1/ 512.
(7) الخصائص: 1/ 512.

وهكذا نرى أنهم (لما أفاضوا في دراسة هذه المادة الصوتية عرفوا لكل حرف صوته صفةً ومخرجاً، مثلما عرفوا له إيحاءه دلالةً ومعنى. . . ولم يعنهم من كل حرف أنه صوت، وإنما عناهم من صوت هذا الحرف أنه معبر عن غرض، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوال المعبرة، فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص مادام يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظل وإشعاع، إذا كان لكل حرف صدى وإيقاع)[1].

يقول: (Lascelles aber crombie): (إن كل كلمة إنما يعبر عنها بواسطة حروف الكلمة ولكن من الممكن أن يكون لهذه الأصوات - فوق هذا - دلالتها الخاصة بها)[2] ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في القرآن الكريم بصورة جلية ففيه توظف الأصوات الشديدة القوية في المعاني والمناسبات التي تشتمل على هاتين الصفتين وتستخدم الأصوات الرقيقة السلسة للمعاني السهلة اليسيرة، وإلقاءُ السمع إلى أصوات القرآن ينبئ بكثير من الدلالات التي يمكن أن نستشفّها من خلال جرس تلك الأصوات وإيحاءاتها، ولنضرب لذلك مثلاً: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾[3]، فبما أن العطاء صعب تكرهه النفس الأمارة بالشّح فقد اختيرت لها حروف وأصوات صعبةٌ ثقيلة في اللسان والسمع، فالهمزة والعين من حروف أقصى الحلق وإخراج الأصوات من هذا المخرج القصي غاية في الصعوبة والمشقة، والطاء انحباسية انفجارية، وصوت (أُع) يحكي صوت (رجيع الأكل) وأن المعطي يجب أن يخرج ما في جعبته مما اكتنزه من المال فصعوبة هذه الأصوات تحكي صعوبة بذل المال، ويلي ذلك شرط التقوى بما فيه من مكابدة الصعاب ومنازلة الشهوات والأهواء، فدخل في تركيب اللفظة فونيم (القاف) الشديد الذي ينتج بقفل تام لمجرى النفس ثم فتحه والذي يحكي بصداه مشقة التقوى وصعوبتها، وكذلك الحال

(1) دراسات في فقه اللغة: 141، 142.
(2) قواعد النقد الأدبي: 40، 41.
(3) سورة الليل، الآيات: 5، 6، 7.

بالنسبة لفونيمي (الدال والقاف) في صدَّق كل ذلك يحكي مشقة وعنت هذه الأمور وثقلها، ومن اقتدر على هذه الصعاب فإن الله يجزيه بأن ييسره لليسرى! فلاحظ سهولة (اللام والسين والياء) وجرسها وموسيقاها التي تناسب سهولة المعنى ودلالة التيسير. ويمثل هذا الجانب أيضاً ابن سنان الخفاجي (ت446هـ) الذي ذهب إلى تقرير دلالة الصوت على أنها دلالة ذاتية، لأنه (لا يجوز وجود الصوت إلا في محل. . . ولأنه يختلف باختلاف حال محله فيتولد من الصوت في الطست خلاف ما يتولد في الحجر، فالصوت حادث من أثر المصاكة الموضعية لذات الشيء المحدث له، وكذلك أصوات الألفاظ فهي ساذجة غفلة تحدث لها في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيها عن امتدادها فتخرج الحروف ومنها الألفاظ دالة على جهات الكلام كحروف الشيء وجهاته)[1] وإن كان (Bregson) قد قال: (الكلمة مومياء. جثة فارقتها الحياة، فهو بلا شك قد حكم بالموت على الكلمة الفرنسية لأنه لم يعثر على أية رابطة فطرية بين معانيها وبين خصائص أحرفها، وهذا لا ينطبق بأية حال على الحروف العربية وكلماتها)[2]، فقد ثبت في دراسة أُجريت على خصائص الحروف العربية على واقع آلاف الأمثلة المضروبة أن العربي قد اعتمد خصائص الحروف ومعانيها في ألفاظه للتعبير عن معانيه، وقد آخى في ذلك بصورة عامة بين القيم الجمالية والقيم الإنسانية مما يشير إلى فطرية العربية، ويقرر الشعراء الرمزيون أن (الكلمة هي صوت الوجدان لها سحرها ودفؤها وعبقها، جهرها وهمسها، شدتها ولينها، تفخيمها وترقيقها، لها بتولة الفكر وطهارة النفس، إنها مظهر الانفعال النفسي)[3].

وذهب ابن سينا الفيلسوف إلى مقابلة الحروف بما يماثلها من الأصوات الطبيعية كجزء من الدلالة الصوتية، قال: (والحرف هيأة للصوت عارضة له، يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزاً في المسموع، فالهاء: تسمع من اندفاع الهواء بقوة في الماء، والحاء: عن إخراج الهواء عن كل مضيق

(1) سر الفصاحة: 11.
(2) خصائص الحروف العربية ومعانيها: 8.
(3) خصائص الحروف العربية ومعانيها: 17.

مستعرض رطب. . . والخاء: عن حكك جسماً جافاً بجسم صلب، والقاف: عن انشقاق الأجسام، . . . والراء: عن ارتعاد ثوب معرض لريح قوية. . . واللام: عن لطم الماء باليد: والفاء: عن حفيف الأشجار وما أشبهها. إلخ)[1] وقد تنبه (ابن جني) إلى انعدام الدلالة الطبيعية بين اللفظ ومعناه في كثير من الألفاظ، ومرد ذلك عنده، يفسره قوله: (أسباب التسمية تخفى علينا لبعدها في الزمن عنا ألا ترى إلى قول سيبويه (ت180هـ): أو لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعني أن يكون الأول الحاضر شاهد الحال، فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية، والآخر لبعده عن الحال لم يعرف السبب للتسمية، ألا ترى إلى قولهم للإنسان إذا رفع صوته: قد رفع عقيرته فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت وبين معنى (ع ق ر) لبعد عنك وتعسفت. وأصله أن رجلاً قُطعت إحدى رجليه، فرفعها ووضعها على الأخرى ثم صرخ بأرفع صوته، فقال الناس: رفع عقيرته)[2] وتقر الدراسات الحديثة ما ذهب إليه (ابن جني)[3]، وتميل إليه النفس أكثر وتؤيده الشواهد الكثيرة من القرآن واللغة، فإن اقتران الحروف ببعضها لا يكون اعتباطاً، قال الجاحظ (ت255هـ): فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغينَ بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير. . . وهذا باب كبير يُكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يُجرى)[4] وعلق الدكتور (أحمد مطلوب) على عبارة الجاحظ بقوله: (وهذه التفاتة ذكيّة لأنّ لِلّغة العربية ذوقاً خاصاً في اقتران الحروف، ولذلك لا نجد ما أشار إليه الجاحظ إلا في الألفاظ الدخيلة، وبهذه القاعدة يستطيع الباحث أن يعرف أصل اللفظ العربي من دخيله)[5]، وفي إطار

(1) أسباب حدوث الحروف: 16، 17، 18، 19، 20.
(2) الخصائص: 1 / 113.
(3) جرس الألفاظ: 291.
(4) البيان والتبيين: 1 / 69.
(5) البلاغة عند الجاحظ: 37.

جمالية الكلمة وضع البلاغيون شروطاً لمفهوم الفصاحة عرض لها (ابن سنان) في كتابه (سر الفصاحة) أبرزها شرط التباعد في مخارج الأصوات، فالحروف عنده (أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، فتقارب مخارج اللفظ يبعده عن الجمال، وذكر ما يستقبح لفظها في النغم والإيقاع كلمة (مستشزرات) و(الهعخع)، وعلل ذلك بقوله: (وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يستقبح عندك بعض الأمزجة في الألوان، وبعض النغم في الصوت)[1].

والظاهر أن لهذا ضابطاً كما قاله صاحب المختصر إذ قال: (والضابط هنا أن كل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلاً متعسر النطق به فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك على ما صرح به ابن الأثير (ت637هـ) في المثل السائر، وزعم بعضهم أن منشأ الثقل في (مستشزرات) هو توسط الشين المعجمة التي هي من المهموسة الرخوة بين التاء التي هي من المهموسة الشديدة وبين الزاي المعجمة التي من المجهورة)[2]. والذي نراه أن هذه الشواهد توضح أن (عبد القاهر الجرجاني) انطلاقاً من ولعه بالتركيب والنظم والأسلوب قد ركن الأصوات جانباً عندما قال: (لو أن واضع اللغة قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد)! فلو كان نظم الحروف في الكلمات اعتباطاً للزم أن يكون ترتيب الكلمات في الجمل اعتباطاً أيضاً، وهذا فاسد كما نرى.

ولم يحد الجرجاني عن نهجه الذي اختطه لنفسه في بيان النظم وإعطائه الأولوية في الدراسة على حساب الأصوات في كتابه: (أسرار البلاغة) فيقول: (فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل يقتدحه العقل

(1) سر الفصاحة: 64.

(2) شرح المختصر على تلخيص المفتاح: 15.

من زناده)[1]، ولعل افتتانه بالتركيب وحده حمله على إساءة الظن بقيمة الأصوات ووظيفتها، فالتفريط بالأصوات وأهميتها من حيث الجرس والتناسق والوظيفة تقصير في تلمس ما نسميه (فهم اللغة)، إذ الروعة الجمالية لا تنجلي بمعزل عن فكرة (الهرم اللغوي) الذي يبدأ بالأصوات وينتهي بالدلالة التي هي مآل التأليف، ويبدو أن عبد القاهر الجرجاني ومن يرى رأيه لم يسبروا أغوار الأصوات ولم يستجلوا مكامنها وفك مغاليقها وفهم أسرارها على النحو الذي فعله الدرس الصوتي الحديث، وعليه فإن تجاهلهم أهمية الصوت اللغوي أحدث شرخاً في الدراسات اللغوية، وترك أثراً في مباحث دلالات التراكيب والأساليب البلاغية، فلا بلاغة من غير دراية بالأصوات وإحاطة بأسرارها، وقد أدرك ابن خلدون (ت808هـ) هذه الحقيقة إذ قال: (ليس في تعريف القدماء ما يعطي صورة واضحة للبلاغة)[2] ولا أعلم كيف ساغ أن يقال إن ترتيب الحروف داخل الكلمة شيء اعتباطي، والجرجاني نفسه عندما يصف حسن الكلام ويتحدث عن جمال توالي الألفاظ في الكلام - يقول عن ذلك -: (إنه نظير الصياغة والتحبير والتفويف والنقش وكل ما يقصد به التصوير)[3].

نقول إن الألفاظ لها بنيات أيضاً وهي الأصوات، فلو كان تواليها في الألفاظ اعتباطاً، غير مرتبٍ على أساس من الاختيار والتنظيم الدقيق، كيف تركب منها ألفاظ أورثت صياغةً ونقشاً جميلاً؟ وإذا كان ترتيب الحروف في الألفاظ مشوشاً غير منمّق كيف أكسبت الألفاظ جمالاً وبهاءً ونقشاً أورثت في الكلام تحبيراً وزخرفة ونقشاً؟ إذاً وجب أن تكون الكلمات مرتبة الحروف متآلفة الأصوات حتى تستأنسها الآذان وتستلذها الطباع ويحصل من تراكبها وترتيبها كلمات تكوّن نقشاً وزخرفة وتحبيراً وتفويفاً.

(ويبدو أن حرص القدماء على التمييز بين القرآن والشعر كان أحد أسباب استبعاد (الإيقاع) من خصائص الفصاحة، ومن ثم من خصائص إعجاز

(1) أسرار البلاغة: 4.
(2) مقدمة ابن خلدون: 117.
(3) ينظر: دلائل الإعجاز: 34.

القرآن)[1]، ولعل هذا ما حفز عبد القاهر الجرجاني على إنكار وظيفة الجرس والإيقاع وغمطها في إيصال الدلالات، مع أن كثيراً من القدماء قد أثبت المناسبة بين الصوت والدلالة، فيقول السيوطي (ت911هـ): (وأما أهل اللغة فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني)[2] وقد تناول القدماء (إعجاز القرآن) من وجوه كثيرة وأفردوا له مصنفات عديدة، وسار على هديهم المحدثون، كالنكت في إعجاز القرآن للرماني (ت386هـ) وإعجاز القرآن للباقلاني (ت403هـ) ودلائل الإعجاز للجرجاني، ومن مصنفات المحدثين: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ومعجزة القرآن للشعراوي، وإشارات الإعجاز في مظان الإيجاز للشيخ (سعيد النورسي)، إلى جانب ما أورده المفسرون في كتب التفسير[3]، وما ورد في كتب علوم القرآن[4]، إذ ينثال الحديث فيها عن الإعجاز اللغوي والعلمي والغيبي والتشريعي، والإخبار بالغيب والمستقبل والإعجاز الرقمي (العددي)، وإعجازه من ناحية جمال تركيبه، ورقي نظمه المباين لأسلوب كلام العرب.

ولكن وجدنا أن القدماء لم يعيروا الجانب الصوتي في إعجاز القرآن ما يرضي الطموح، لذا فإن الإبانة عن الوظيفة (الفونيتيكية) و(الفونولوجية) التي تؤديها الأصوات غائبة بين الحديث عن البلاغة وأجزاء الجملة مبثوثة في تضاعيفها، فلا نجد في كتب التفسير والإعجاز القرآني إلا إشارات مبتسرة عن الإعجاز الصوتي في آيات ومفردات الذكر الحكيم، وهذا ما حفزنا على اقتحام هذا المجال والخوض فيه بما لدينا من إمكانيات متواضعة استمدت مقوماتها من مساقط ضوء منثورة في الموروث - على قلّتها - وما وجدناه في المصادر الحديثة بعدما تلاقح علم اللغة مع ما توصلت إليه العلوم الأخرى من نتائج ذات بال تهدف إلى خدمة منطق العلم، فقد وجدنا في علم فيزياء الصوت وعلم نفس

(1) مفهوم النص: 157.
(2) المزهر: 1 / 40.
(3) كالكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للرازي، وتفسير أبي السعود.
(4) منها: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والبرهان في علوم القرآن للزركشي.

اللغة ما نستنير به ويهدينا إلى مبتغانا، فاستمددنا من نظرياتهما العزم على الارتقاء إلى مستوى الدرس الصوتي بما يتناغم وما ننشده من تجلية الإعجاز الصوتي في دعاء القرآن الكريم.

والدرس الصوتي: علم واسع الأرجاء متين الأركان له أصوله وقواعده ومنهجه العلمي الرّصين، فهو يخضع اللغة لأدق وسائل الكشف عن مكامن الأسرار فيها. ويتطلب البحث الصوتي استجلاء آفاقه، والوقوف عند ظواهره وخفاياه لإعطاء ملامح صورة العمل الذي قمنا به. فالدراسة الصوتية لها جانبان هما: (phonetics) و(phonology) فالأول: يدرس (قابلية آلة النطق لدى الإنسان على إنتاج الأصوات والنظر في الحركات العضوية التي تسهم في إنتاج كل صوت، ودراسة الخواص الفيزيائية للصوت الإنساني وتتبع رحلته من فم المتكلم إلى أُذن السامع وتحليلها، من غير النظر إلى وظيفة هذه الأصوات في اللغة وائتلافها مع غيرها في أبنية تدل على المعاني)[1] وهو يمثل الجانب المادي للصوت. فدراسة بنية اللغة المنطوقة تشكل موضوع علم الأصوات phonetics الذي يبحث في كيفية إنتاج الصوت، والحديث عن أعضاء النطق ودرجات فتحها وغلقها وسمات الأصوات ذبذباتها وتردداتها... وغير ذلك من الأمور التي تدخل ضمن عمل الباحث المنهمك بدراسة علم الأصوات كقياس حركات الشفتين واللسان والحلق والرئتين، وذلك بإخضاع الأصوات إلى أجهزة صوتية خاصة تتحكم في بيان كمية الصوت وقياسها، ويتطلب ذلك معرفة الخصائص التي يمتاز بها جهاز النطق (the organs of speech) وفي الحقيقة لا يوجد جهاز خاص بذلك، وبعبارة أخرى (إن أجهزة النطق التي تطلق على الأماكن التي تنتج فيها الأصوات ليست مخصصة لذلك فقط، بل هي أجهزة بايلوجية تختص بالتنفس، والتذوق، والشم وأنشطة بايلوجية أخرى، وما النطق (Auricular) أو الكلام (speech) إلا وظيفة ثانوية تقوم بها هذه العضلات والأعصاب التي تسمى

(1) المدخل إلى علم أصوات العربية: 23.

وينظر: Anote on the physical factor in stammerring; P-25.

مجازاً جهاز النطق)[1]. فجهاز النطق يتضمن نظاماً يعرف بـ(نظام) النطق (the articulate system)، والأجهزة الفعالة التي تنشط في أثناء الكلام هي: (الأنف، الشفتان، الفم الذي يشتمل على الأسنان واللسان)[2] وبما أن الكلام هو (تعديل نَفَسِيٌّ (mode filed breathy)، فإنه نتاج ميكانزم تدفق هواء الرئتين (pulmonic air stream mechanism) فالكلام ينطلق مع الزفير (Regressive air-stream) وعلى الدارس تتبع سير الهواء من الرئتين خروجاً إلى الفم والشفتين مروراً بالحنجرة)[3].

ويمكن تحديد الأعضاء الحيوية التي تدخل في إنتاج الكلام على وفق من المخطط الآتي[4]:

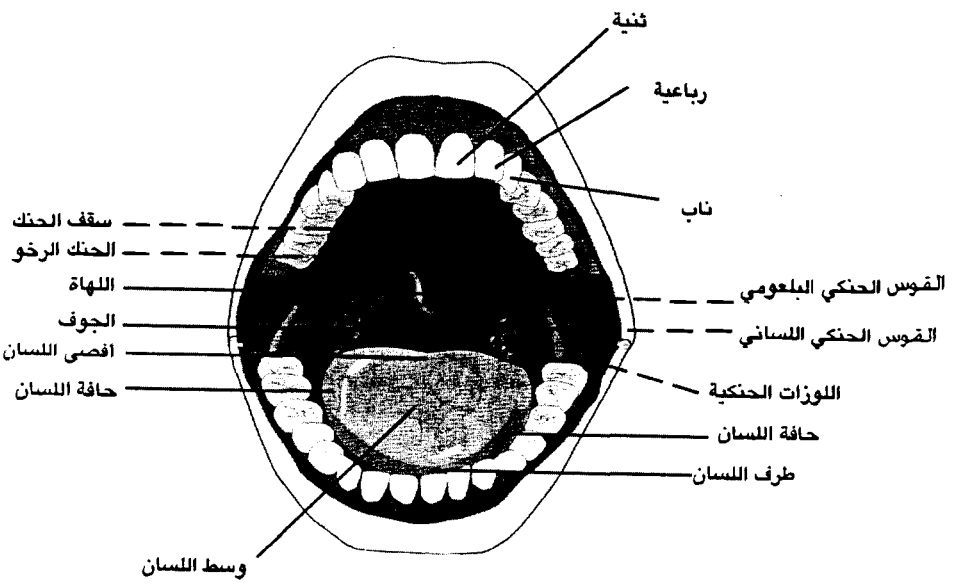


(1) language: A. sapir: p: 1.

(2) General phonetic. P: 23-24.

(3) American anthropology: p: 268.

(4) English phonetics and phonology: p: 23-24.

والرسم الآتي يبين أشهر الأصوات المستخدمة في اللغة العربية مع تحديد مخارجها[1]:

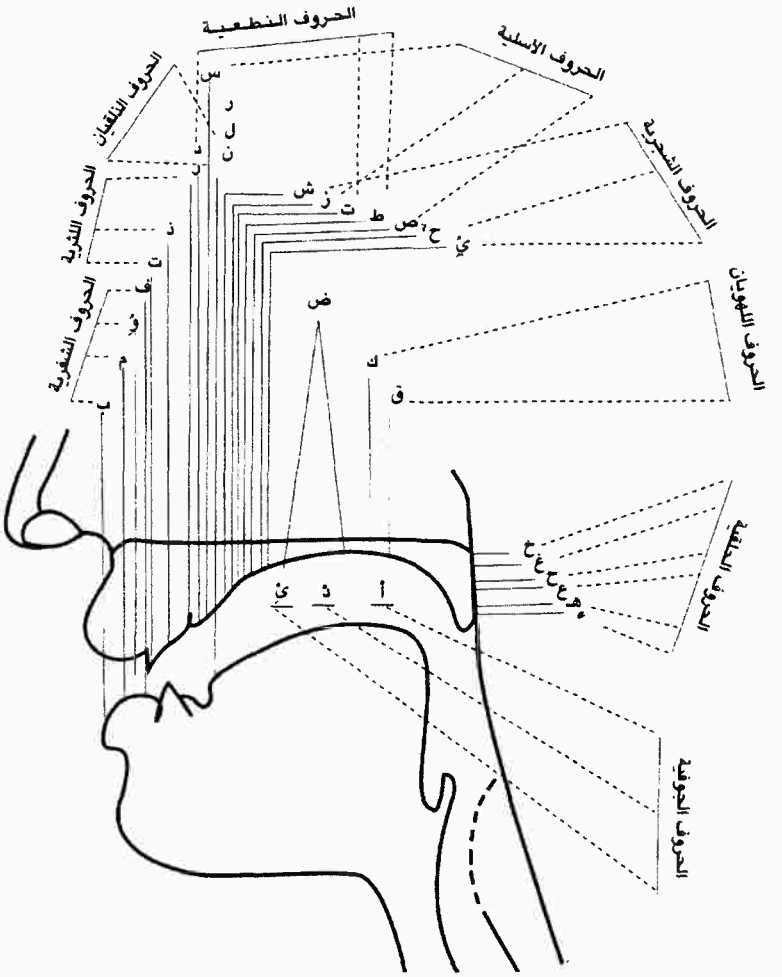


والتعديلات التي يمكن أن تتم في طريق الهواء - وينتج عنها - الأصوات، لا تخرج عما يأتي:

1 - قفل تام ثم فتح: وينتج عن هذا ما يسمى بالأصوات الوقفيةstops وتسمى كذلك الانفجارية polosive، مثل (القاف والباء).

(1) دراسة الصوت اللغوي: 321.

2 - تضييق: وينتج عن ذلك الأصوات الاستمرارية continuants وهي تقسم على:

أ - صفيرية sibilants - مثل السين والزاي -.

والصفيرية قسمان: هسيسية مثل (السين) وهشيشية مثل (الشين).

ب - احتكاكية: fricatives. مثل (الفاء والذال).

3 - قفل ثم تضييق: ويسمى الصوت حينئذٍ مركباً affricate ويرمز له بـ(ts).

4 - إقفال جزئي: ويشمل:

أ - الأصوات الجانبية laterals: مثل صوت اللام.

ب - الأصوات الأنفية Nasals: مثل صوت النون.

5 - إقفال متكرر trill: وشرط التكرار أن يتذبذب العضو أكثر من مرة سواء كان العضو(اللّهاة أو اللّسان أو الشفة) وينتج عن ذلك أصوات، منها (الراء).

6 - تحكم مفتوح: والتحكم المفتوح للأعضاء Open approximation ينتج أصواتاً لا يسمع معها ضجيج أو احتكاك، وكل أصوات العلة تنتج بهذا الشكل[1].

وإنتاج الأصوات حسب مواضع النطق Place of articulation يكون كالآتي[2]:

| | |
|---|---|
| (١) شفوي | bilabial |
| (٢) شفوي أسناني | labiodental |
| (٣) أسناني | dental |
| (٤) أسناني لثوي | alveolar dental |
| (٥) لثوي | alveolar |

(1) دراسة الصوت اللغوي: 117- 122.

(2) the sounds of the worlds Language:p: 14 -15.

| | |
|---|---|
| (٦) غاري | palatal |
| (٧) غاري طبقي | palatal - velar |
| (٨) طبقي | velar |
| (٩) لهوي | uvula |
| (١٠) حلقي | pharyngeal |
| (١١) حنجري | laryngeal |

ولكل من هذه المواضع أهمية في إنتاج الأصوات - لا يسمح المجال بذكرها هنا ويمكن الرجوع إلى المصادر التي بسطت الكلام في هذا الشأن[1]، ولكننا سنشير في عجالة إلى الحنجرة بما تحويها من الأوتار الصوتية - لما لها من أهمية قصوى في إنتاج الأصوات، فالحنجرة تقع في أسفل الفراغ الحلقي، وتكوّن الجزء الأعلى من القصبة الهوائية وهي أشبه بحجرة ذات اتساع معين. . . وتوجد في الحنجرة (الأوتار الصوتية)، وهما في الواقع وتران اثنان وهما عبارة عن غشاءين، كل غشاء منهما، نصف دائرة حين يمتد، وعندما يمتدان فإنهما يغلقان فتحة الحنجرة ويمنعان مرور الهواء من الرئة، وهما من أعضاء النطق المتحركة، ولهما القدرة على اتخاذ أوضاع متعددة تؤثر في الأصوات الكلامية، وهذه الأوضاع هي:

1 - وضعها في حالة تنفس: وتتم عند انفراج الوترين الصوتيين انفراجاً ملحوظاً يسمح بمرور الهواء خلالها دون أن يمنعه مانع أو عائق، ويحدث في هذه الحالة ما يسمى بحالة الهمس، وتسمى الأصوات التي تنطق حينئذ (الأصوات المهموسة voiceless sounds).

2 - وضعها في حالة الانطباق الجزئي، بحيث يسمح للهواء المندفع من خلالهما أن يفتحهما بسرعة وانتظام فائقين، وينتج عن ذلك ذبذبة الأوتار

(1) ينظر: دراسة الصوت اللغوي، والكلام إنتاجه وتحليله، والأصوات اللغوية.

الصوتية. . . وتعرف هذه الحالة بالجهر، وتسمى الأصوات التي تنطق حينئذٍ بالأصوات المجهورة ( voiced sounds).

3 - وضعها في حالة الإغلاق التام: ويتم في هذه حالة انطباق الوترين الصوتيين انطباقاً تاماً لفترة زمنية قصيرة لا يسمحان بمرور الهواء، ثم ينفرجان انفراجاً مفاجئاً يعقبه صوت يطلق عليه (الوقفة الحنجرية) (glottal stop) - الهمزة -.

4 - وضعها في حالة التضييق: وتكون حالة تضييق بدرجة متفاوتة تسمح بالذبذبة، وهي الحالة التي تصاحب الوشوشة whisper - والمعروف أن الأصوات المجهورة في الكلام العادي تستبدل بأصوات مُسَرَّة whispered- في حالة الوشوشة، على حين تبقى الأصوات المهموسة على حالتها بدون تغيير[1].

ولما للحركات في اللغة العربية من أهمية - في التركيب والدلالة - تم توظيفها في هذا البحث فقد آثرنا الإشارة إلى كيفية إنتاجها، ولابد من الإشارة إلى أن من القدامى مَن أشار إلى الحركات ووظيفتها - منهم (ابن جني) الذي يقول: (اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة)[2]. فالحركات العربية إذاً عبارة عن ثلاث حركات طوال هي (الألف والواو والياء) وثلاث حركات قصار هي (الفتحة والضمة والكسرة)[3] ويرمز لها بالرموز الآتية:

1 - الألف: (ـــَـــ)

(1) علم الأصوات: 38 -39.
(2) سر صناعة الإعراب: 1/ 33.
(3) علم الأصوات: 122.

2 - الواو: (ـــُـــُـــ)

3 - الياء: (ـــِـــِـــ)

4 - الفتحة: (ـَ)

5 - الضمة: (ـُ)

6 - الكسرة: (ـِ)

وتسمى بـ (المصوتات)، وعند نطق المصوت يمر الهواء طليقاً من الفم، غير أن اللسان يتخذ وضعاً في الفم يختلف من مصوت إلى آخر[1].

قال ابن جني: (والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف، ثم الياء، ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو)[2]. ويعرّف (D. jones) الحركات بأنها: (أصوات مجهورة يخرج الهواء عند النطق بها على شكل مستمر من البلعوم والفم، دون أن يتعرض لتدخل الأعضاء الصوتية، تدخلاً يمنع خروجه، أو يسبب فيه احتكاكاً مسموعاً)[3].

وتختلف الحركات من لغة إلى أخرى، فالمصوتات الأساسية في العربية هي ثلاث، في حين تشتمل الإنجليزية على واحد وعشرين حركة، ونُطْق المصوتات أصعب من نطق الأصوات الصامتة لذا نجد صعوبةً في نطق اللغات الأجنبية، وتمتاز المصوتات أيضاً بوضوحها السمعي العالي لذلك يعد الانحراف في نطقها مستكرهاً والخطأ فيها واضحاً ملموساً، فنجد اهتماماً كبيراً بها عند علماء الأصوات.

(ويرجع البحث في المصوتات إلى القرن السادس عشر، وتوطد البحث فيها

(1) ينظر: الأصوات اللغوية - الخولي: 50.
(2) سر صناعة الإعراب: 1/ 20.
(3) علم الأصوات: 112.

وتماسك بحلول القرن العشرين الذي ظهر فيه العالم اللغوي الشهير (D. jones) الذي استطاع بدراسته العلمية الدقيقة القائمة على التجريب المعملي أن يقدم وصفاً دقيقاً للحركات العالمية - وعرفت بالحركات المعيارية - التي تعد معايير أو مقاييس عامة تقاس عليها حركات أية لغة يُراد دراستها)[1].

والشكل الآتي يبين توزيع (الحركات العربية) على مربع (D. jones) للحركات المعيارية[2]:

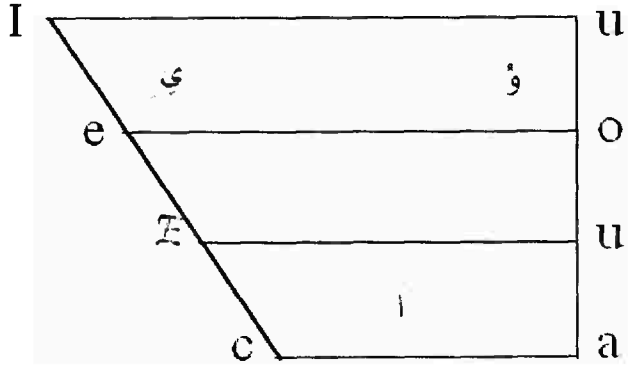


وقد صنف (D. Jones) الحركات على أساس (موقع اللسان من الفم ودرجة فتح الشفتين)، فبحسب ارتفاع اللسان وانخفاضه ودرجة فتح الشفتين تكون صفات المصوتات.

فالمصوت (u): يشبه (الضمة): هو الصوت الذي يكون مؤخر اللسان معه منخفضاً إلى أقصى حد ممكن وملتوياً إلى أبعد نقطة ممكنة. ويوصف بأنه مدور (Round)، رزين (grave)، خلفي (Back)، عالٍ (High).

والمصوت (i) يشبه (الكسرة): يكون وسط اللسان معه في أقصى حالة ممكنة من الارتفاع، ويوصف بأنه أمامي (front)، غير مدور (un - Round)، عالٍ (High)، حاد (acute).

(1) علم الأصوات: 115.

(2) علم الأصوات: 123.

والمصوت (a) يشبه (الفتحة): يكون اللسان معه راقداً وممتداً في الفم في وضع يشبه وضع الإراحة[1] ويوصف: بأنه صوت واطئ (low)، خلفي (Back)، منتشر (diffuse)، غير مدور ( un - Round).

ووضع الشفتين له تأثير في نطق المصوتات، فهما منفرجتان مع الأمامية، مستديرتان مع الخلفية، فتنفرج الشفتان في أثناء النطق بالياء وتستديران في أثناء النطق بالواو، (ولعل وضوح استدارة الشفتين مع الواو هو الذي جعل القدماء ينسبون مخرج الواو إلى الشفتين)[2].

والمصوتات القصيرة (short vowels): لها دلالاتها تبعاً لصفاتها ومخارجها، فـ (أثقل الحركات الضمة لأنها لا تتم إلا بضم الشفتين، ولا يتم ذلك إلا بعمل العضلتين الواصلتين إلى طرف الشفة وأما الكسرة فإنه يكفي في تحصيلها العضلة الواحدة الجارية، ثم الفتحة يكفي فيها عمل ضعيف لتلك العضلة، وكما دلت هذه المعالم التشريحية على ما ذكرناه فالتجربة تظهره أيضاً)[3].

وعلم اللغة الحديث (يتعامل مع الحركة على أنها عنصر له أهميته في التعبير عن المعنى)[4]، فقد (تُفرق العرب بين المعنيين بتغيير حركة الحرف في بنية الكلمة ويختارون صوت الحركة الأقوى للمعنى الأقوى والصوت الأضعف للمعنى الأضعف، فمن ذلك أنهم وضعوا (الذال واللام) للتعبير عن وصف في الدابة ووصف في الإنسان فكسروا الذال للدابة إذا أرادوا ضد الصعوبة فقالوا (ذِل) وضموا الذال للإنسان إذا أرادوا ضد العز، فقالوا: (ذُل)، ولا شك في أن الذي ينال الإنسان من الذُل أكبر خطراً مما ينال الدابة فكان أن (اختاروا الضمة لقوتها للإنسان والكسرة لضعفها للدابة)[5]وقالوا : حلا الشيء في فمي يحلو،

(1) ينظر: دراسة الصوت اللغوي: 151.
(2) الأصوات اللغوية - أنيس -: 41.
(3) التفسير الكبير: 1 / 47.
(4) الصوائت والمعنى في العربية: 17.
(5) ينظر: المحتسب: 2 / 63.

وحلي بعيني، فاختاروا الواو لحاسة الذوق والألف والياء (حلي يحلى) لحاسة البصر، فاختاروا الضمة لقوتها لما يدرك بحاسة الذوق، والألف لضعفها لما يدرك بحاسة البصر، وذلك لأن حاسة النظر أضعف من حاسة الذوق بالفم)[1].

وفي القرآن الكريم تم العدول عن النصب في (سلاماً) إلى الرفع في (سلامٌ) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾[2] (فالنصب) لتحية الملائكة و(الرفع) لجواب سيدنا إبراهيم عليه السلام: (لأن الأخيرة قصد بها الثبات وديمومة السلام، حتى يكون رد التحية من إبراهيم عليه السلام أحسن من تحيتهم كما هي سنة الأنبياء عليهم السلام[3]، أي إن الرفع يوحي بالثباتِ وعدم الزوال، فتقديره (سلام دائم غير منقطع)، أما النصب فيوحي بعدم الثبات، ولما كان الرفع أشرف من النصب لأنه علم الفاعلية والنصب علم المفعولية، جعلت الضمة للنبي ﷺ، والفتحة للملائكة، لأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولأن الضمة رزينة ثقيلة لاءمت رزانة النبي ﷺ وثقل شأنه، والفتحة حركة خفيفة لاءمت خفة حركة الملائكة ولطافة خلقتهم النورانية.

واتخذ البحث من ملاحظة دلالات المصوتات القصيرة والطويلة منطلقاً إلى الولوج في إيضاح كثير من دلالات آيات الدعاء التي أجريت عليها الدراسة الصوتية.

ومن الأمثلة التي ساقها (ابن جني) دليلاً على القيمة الذاتية للمصوتات قوله: (ومن ذلك قولهم للسلّم مِرقاة وللدرجة مَرقاة، فنفس اللفظ يدل على الحدث الذي هو الرقيّ، وكسر الميم يدل على أنها مما ينقل ويعتمل عليه... وفتحة ميم مرقاة تدل على أنه مستقر في موضعه،... فنفس (ر ق ي) يفيد معنى الارتقاء (وكسرة الميم وفتحها) تدلان على ما قدمناه: من معنى الثبات أو الانتقال)[4].

---

(1) المحتسب: 2/ 63.
(2) سورة هود، الآية: 69.
(3) مختارات معربة من كلمات القرآن الكريم: 59.
(4) الخصائص: 2 / 329.

فالكلمة: من حيث هي صوت تحمل دلالة، وتتصف بجمالية معينة على مستوى اللفظ المفرد، وهي وإن كانت تحمل سمات مشتركة بين اللغات من حيث تأليفها لتراكيب نحوية وأساليب بلاغية، فإنها ذات ميزة فريدة في اللغة العربية بما تملك من (المصوتات) ما يمنحها طاقة توليدية ترفد المعجم بالألفاظ، والتراكيب بالدلالات في نحو (ظَلال) و(ظِلال)، و(قتول) و(قتيل) و(قِتال)، و(كريم) و(كارم)، وعلى مستوى التراكيب فإن المصوتات تؤدي وظيفة قادرة على الإيحاء بالدلالات المتباينة من حيث القوة والزمن في نحو: (له علمٌ علمُ الفقهاءِ) و(له علمٌ علمَ الفقهاء)، فالضمة أقوى من الفتحة عليه فإن (علمُ) في التركيب الأول يدل على أنه (عالم) و(علمَ) في التركيب الثاني يدل على أنه (يتعلم) ولم يرق إلى مستوى (العلمية)، ويعزى ذلك إلى أن الضمة أثقل من الفتحة، ولو قلنا: (هو كارم) لم يصل كرمه إلى مستوى (كريم) لأن الفتحة أخف من الكسرة، وهذا سيبويه (ت180هـ) تقوده فطنته إلى الكشف عن التباين في الدلالة الزمنية التي تؤديها الضمة والفتحة، فالأولى تدل على المضي في قولنا: (حسبته شتمني فأثبُ عليه)، أي: وثبتُ عليه، والثانية تدل على الاستقبال في قولنا: (حسبته شتمني فأثبَ عليه)، أي: لم أثبْ بعد)[1].

فنستنتج من هذا كله أن الفونيم (phoneme): (وحدة صوتية مميزة، أي أنه يميز الكلمات من بعضها بعضاً من حيث اللفظ والمعنى)[2]، فكلمة (سام) تختلف عن (صام)، لأن الفونيم (س) يختلف عن الفونيم (ص)، و(دَرَسَ) تختلف دلالتها عن (دُرِس)، لاختلاف دلالة الفتحة عن الضمة والكسرة، فالفونيم إذاً: أصغر وحدة صوتية قادرة على إيجاد تغير دلالي. وقد تم توظيف دلالات الفونيمات بدقة في هذا البحث عندما تناولنا آيات الدعاء بالدراسة الصوتية وخلصنا إلى نتائج أثبتناها في موضعها.

أما القسم الثاني من الدراسة الصوتية فيعرف بـ(النظام الصوتي phonology)

(1) الكتاب: 3 / 36، والمنهج الوصفي في كتابة سيبويه: 249.
(2) مقدمة في اللغويات المعاصرة: 80.

وهو العلم الذي يختص بدراسة البنية (structure) أو (النظام system)، ومفهوم البنية يتعامل مع العلاقات الأفقية (synagmatic Relations)، أي كيفية ترتيب الوحدات (units) عن طريق استبدال صوت بآخر داخل البنية، والنظام يتعامل مع العلاقات العُمودية (paragmatic Releations) الناتجة عن العلاقات بين الأصوات داخل النظام (كالتماثل والتخالف والإشمام والرَّوم)...، وقد يعرف بـ (علم الصوت الوظيفي (functional phonetic) ويولي هذا العلم التعبير عن المعاني اهتمامه، والذي يعنينا في هذا البحث: أن الحالة النفسية للداعي، وسياقات دُعائه تؤثران في طبيعة الأصوات التي تتشكل منها الأدعية، فإن سياق الرجاء يختلف عن سياق الخوف والاستغاثة، وسياق الدعاء للنفس مباين لسياق الدعاء للغير، وحال الداعي في البر والأمان غير حاله في البحر عند خوف الغرق والهلاك، لذلك عمد البحث (في بداية كل مبحث) إلى ذكر أقوال المفسرين في الأدعية التي تمت دراستها صوتياً، لبيان سياقات الأدعية ومدى تأثير ذلك في أنماط الدعاء وألفاظه وأصواته.

فالسياق مهم جداً في فهم النصوص ويؤثر في الأصوات التي تستخدم في التعبير عن الدلالات.

والحق أن دارس الأصوات به حاجة إلى صبر جميل ليصل من خلال تجاربه وأبحاثه إلى نتائج صائبة، والسمات فوق التركيبية من (نبر ونغمة وطول وتمفصل) التي هي قسم من علم الأصوات الوظيفي (phonology) تتطلب أكثر من غيرها الأجهزة الصوتية الحديثة ومختبرات الصوت - وبما أن هذه الأجهزة غير متوفرة لدينا، فقد تجاوزنا دراسة هذه السمات إلى دراسة السمات التركيبية من (ذبذبات ومقاطع وصفات الفونيمات ودلالات المصوتات ودلالات الجهر والهمس والقيمة الذاتية للحروف ومخارجها) اعتماداً على المصادر العلمية الحديثة التي توفرت لدينا ومن خلال الملاحظة الذاتية، فإن علماء الأصوات المحدثين يقولون: (إن أهم أجهزة عالم الأصوات هي الأذن التي تظل أداته الثمينة على الرغم من جميع المخترعات التقنية في عصرنا)[1].

(1) المدخل إلى الأصوات العربية: 27.

وهذا يؤكد ما قاله ابن خلدون: (والسمع أبو الملكات اللغوية)[1].

وقد ذكرنا جانباً من دلالات بعض السمات التركيبية آنفاً - من ذلك دلالات جرس الحروف وإيحاءاتها ودلالات المصوتات - وسنذكر ملخصاً عن بقية السمات التركيبية وكيفية الإفادة منها وتوظيفها دلالياً.

ولكن لا بد من الإشارة إلى أننا وظفنا عناصر أخرى في البحث منها: (الاشتقاق الكبير)، لأننا رأينا أن ذلك من مهمات البحث الصوتي، واستعان البحث بما كتبهُ (ابن جني) في الخصائص عن الاشتقاق الكبير، وتم تطبيق ذلك في الفصلين الأول والثاني.

والاشتقاق الكبير: (عبارة عن ارتباط مطلق غير مقيد بترتيب بين مجموعات ثلاثية صوتية ترجع تقاليبها الستة وما يتصرف من كل منها إلى مدلول واحد مهما يتغاير ترتيبها الصوتي)[2]، ولأن في كل تركيب مفهوماً مركزياً يبدو في كلمة تنشر ظلالها على التركيب كله ويزودنا بالدلالة التي نتغيّاها[3]، فقد اخترت الكلمات التي تمحورت حولها المفاهيم الدلالية التي تنبئ عن الدعاء وتعبر عنه، فأجريت عليها الاشتقاق الكبير لمعرفة أسرار هذه اللغة العجيبة.

وقد أورد (ابن جني) أمثلة عديدة على ذلك، منها تقليبة مادة (جَبَرَ) إذ يرى أنها إن وقعت فهي (للقوة والشدة)[4] فمادة (ج ب ر) منها (جبرتُ) العظمَ، والفقيرَ إذا قويتهما وشددت منهما، و(ج ر ب) إذا جربته الأمور ونجدته فقويت مُنّته واشتدت شكيمته، و(ب ج ر)، ومنها (البجرة) وهو القوي السّره، ومنه قول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: (إلى الله أشكو عَجري وبَجري) تأويله: همومي وأحزاني، و(ب ر ج) ومنه (البُرج) لقوّته في نفسه وقوّة ما يليه به، و(ر ج ب)، ومنه (رجبتَ الرجلَ) إذا عظمتَه وقوّيتَ أمرَه، ومنه (رجب) لتعظيمهم إياه عن

(1) المقدمة 2 / 225.
(2) دراسات في فقه اللغة العربية: 186.
(3) ينظر: علم الدلالة: 96، واللسانيات واللغة العربية: 37.
(4) الخصائص: 1 / 528.

القتال فيه، (ر ب ج) ومنها (الرباجي) وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله) وابن جني مع كثرة ما أورده من الأمثلة ترسيخاً لقواعد (الاشتقاق الكبير) فهو لا يدّعي أنّ ذلك مطّرد في مواد اللغة جميعها، ولكنه صرح بأنه:

(إنما رسم له من منهجه رسماً ليحتذيه ويتقبله فيحظى به ويكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله)[1].

ولا شكّ في أن فونيمات اللغة تعمل على تشكيل بنى دنيا تعرف بـ(mono syllab) وهي تتألف من (صامت ومصوت) و(pollo syllab) وهما يؤلفان ما يعرف في الدرس الحديث بالمقطع.

والمقطع (syllab): في أبسط تعريفاته: (نبضة صدرية واحدة، أو نفخة هواء من الصدر)[2].

ويمكن أن يعرف المقطع من الناحية (الأكوستيكية/ Acoustic): (بأنه قمة إسماع بين حدين يدنيين من الأسماع)[3]، أو (مجموعة من الأصوات التي تمثل قاعدتين تحصران بينهما قمة)[4].

وقد لاحظ الأصواتيون المحدثون أنه في حالة تسجيل الذبذبات الصوتية لجملة من الجمل فوق لوح حساس يظهر إثر هذه الذبذبات في خط متموج، ويتكون هذا الخط من قمم وقواعد هي أعلى ما يصل إليه الصوت من الوضوح، وتحتل الأصوات الذائبة (المصوتة) تلك القمم في معظم الأحيان، تاركة القواعد للأصوات الجامدة (الصامتة)[5].

ويستطيع الدارس أن يضع كفه على أسفل صدره وينطق بكلمة: (كَتَبَ) نطقاً متأنياً هكذا: (كَ تَ بَ) وسوف يحس بضغطات الحجاب الحاجز على الصدر،

(1) الخصائص: 1 / 531.
(2) دراسة الصوت اللغوي: 285.
(3) أسس علم اللغة: 96.
(4) أصوات اللغة: 139.
(5) ينظر: أبحاث في أصوات العربية: 11.

وهي ثلاث تقابل مقاطع الكلمة الثلاث)[1].

ويمكن كتابة (البسملة) مقطعياً هكذا:

(ب ـِ س/ م ـِ ل/ ل ـَـَ /ه ـَ ر/ر ـَ ح/م ـَـَ /ن ـِ ر/ر ـَ /ح ـِـِ /م ـِ )[2] عند الوصل وعدم الوقف.

وتعمل الكتابة المقطعية على فك التنوين والتغانن عن همزة الوصل وبيان أهمية المصوتات، وكما في الدرس الصوتي وضع (C) رمزاً لـ(Consonants) أي الصوامت و(V) لـ (Vowels) أي المصوتات، فإننا نعمد إلى اختيار (ص) رمزاً للصامت و(م) رمزاً للمصوت.

والمصوتات (الفتحة والكسرة والضمة) ترسم على الخط أو تحته، وتشير الفتحتان إلى الألف والكسرتان إلى الياء، والضمتان إلى الواو.

والنظام المقطعي في اللغة العربية يكون على هذا النحو:

1 - المقطع القصير المفتوح (short open syllable) المتكون من صامت+ صائت - مثل: (لِ) ورمزنا له بـ(ص م).

2 - المقطع المتوسط المفتوح (mead open syllable) - المتكون من (صامت + مصوت + مصوت) - مثل (لا) ورمزنا له بـ(ص م م).

3 - المقطع المتوسط المغلق (mead closed syllable)، المتكون من (صامت+مصوت+صامت) مثل (دُم)، ورمزنا له بـ(ص م ص)

4 - المقطع الطويل المغلق (Long closed syllable) المتكون من (صامت+ مصوت+ مصوت+ صامت) مثل (نامْ) ورمزنا له بـ(ص م م ص).

5 - المقطع الطويل الزائد الطول (Long syllable) ويتكون من (صامت+ مصوت+ صامت+ صامت) مثل كلمة (مِصْرْ) و(جِسرْ) ورمزنا له ب(ص م ص ص).

---

(1) المدخل إلى علم أصوات العربية: 199.

(2) المدخل إلى علم أصوات العربية: 204.

والمقطع يكون مفتوحاً سواء أكان قصيراً أم متوسطاً ينتهي بمصوت في نحو (ص م) و(ص م م)، ويكون مغلقاً إذا كان منتهياً بصامت في نحو (ص م ص).

(وهذا التنوع في المقاطع يرتبط بالانفعالات والمضامين المختلفة كما كشف التحليل الصوتي للشعر، فالشاعر الذي يميل في انتقاء الكلمات ذوات المقاطع المفتوحة مثلاً يزيد من قوة الوضوح في السلم الموسيقي الداخلي للقصيدة. . . كما لوحظ بأن طول المقطع وقصره مرتبط بالحالة النفسية والعواطف والمضامين التي تجسدها القصيدة)[1] وقد كشفت الدراسة الصوتية في بحثنا عن حقائق تخص آيات الدعاء المقطعية ثبتناها في موضعها.

ومن مقومات الدراسة الصوتية ملاحظة الذبذبات (Vibrations) التي هي (حركات ذرات الجسم الذي يُحدث الصوت، وحركات ذرات الهواء الذي ينقل الصوت، وحركات ذرات الجسم الذي يستقبل الصوت)[2] وهذه الذبذبات الصوتية المتعاقبة تسبب تحرك أجزاء الهواء المجاورة لها وهذه الأجزاء تضغط على الذرات الهوائية المجاورة لها، وهكذا إلى أن تدخل أذن السامع وتستقبلها طبلة الأذن وتترجم هذه الذبذبات إلى إشارات يفسرها الدماغ، (ويمكن تسجيل ذبذبات الصوت بواسطة جهاز (الأوسيلوجراف) (Oscillograph) الشبيه بجهاز التلفزيون، غير أنه يلتقط الإشارات من ميكرفون أمام المتكلم، ويحول الجهاز الموجات الصوتية إلى موجات كهربائية تظهر على شاشته، ويمكن بواسطة هذا الجهاز تحليل الموجات الصوتية إلى الموجات البسيطة التي تتكون منها كما يمكن بواسطة استعمال آلة تصوير متحركة، تصوير الذبذبات الناتجة عن عبارة أو أكثر)[3].

وتتباين الفونيمات من حيث ذبذبة الأوتار الصوتية معها مما يؤثر في تباين وضوحها السمعي، فمنها ما تمتاز بذبذبات عالية (High vibration) وهي (ب،

(1) منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري: 48-49.
(2) أصوات اللغة: 97.
(3) علم الأصوات: 24.

ل، ر، م، و، ن) ويرمز لها اختصاراً بـ (H.V) ومنها ما تمتاز بذبذبات متوسطة (Mead vibration) وهـي (ء، ع، ش، ق، هـ، د، س، ك، ف، ي، ح، ج) ويرمز لها بـM.V.

ومنها ما تمتاز بذبذبات واطئة (Low vibration) وهي: (خ، ذ، غ، ص، ت، ط، ض، ز، ظ، ث) ويرمز لها بـ(L.V)[1].

وتبعاً للوضوح السمعي الذي يمتاز به كل فونيم يختلف استخدامه في السياقات المتباينة، فالفونيمات ذوات الذبذبة العالية تناسبها السياقات التي تتطلب إعلاء الصوت مثل الهجاء والتفاخر والتحريض، وما فيه تعظيم.. أما الفونيمات المتوسطة فتستخدم غالباً في مناسبات المدح والوصف والغزل، وتكثر الفونيمات الهابطة في مناسبات الرثاء والحزن وبكاء الأطلال..)[2].

وقد أحصيت الفونيمات وصُنّفتْ تبعاً لذبذباتها في آيات الدعاء التي دُرِستْ صوتياً، وبينت دلالاتها وإيحاءاتها فكانت عوناً في كشف كثير من الأسرار والمعاني.

وتمت الاستعانة أيضاً بإحصاء الفونيمات (المجهورة والمهموسة) فهي أيضاً من ناحية وضوحها السمعي توحي بمضامين تعبر عن الحالة النفسية للناطق بها. وتمت الاستفادة من خارطة الجهر والهمس في المباحث التي تم تناولها بالدراسة الصوتية.

وأخيراً نرى أن هذا العمل محاولة جادة لإظهار جانب آخر من جوانب الإعجاز القرآني وهو الجانب الصوتي الذي لم يُولَ الاهتمام الكافي في الموروث اللغوي القديم، ويمكن الإفادة من هذا النهج في فهم كثير من أسرار التنزيل المبارك، والسير على هذه الخطى للوصول إلى نتائج مُرضية في البحث اللغوي.

---

(1) ينظر: الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية: 169 وما بعدها.

(2) من محاضرات الدكتور (نوزاد حسن) الملقاة على طلبة الماجستير - جامعة صلاح الدين. 2004م.